التعريف والنقد

تفسير « محاسن التأويل »

تأليف الشيخ محمد جمال الدين القاسمي الدمشقي

(١٢٨٣ ـ ١٣٣٢ هـ)

الجزء الأول (المقدمة)

طبع في مطبعة البابي الحلبي وشركاه

كان علامة الشام القاسمي تغمده المولى برحمته ورضوانه آيةً في المحافظة على الوقت ، والمواظبة على العمل ، كان يجهد نفسه بدراسة التفاسير الكثيرة ، ومدوّنات السنة وشروحها ، ومؤلفات أصول الدين ، وأمهات الفقه وأصوله ، ومطوّلات التاريخ والأدب ، وكتب المقالات والنحل ، يمعن النظر فيما ألّف في هذه العلوم والفنون ، ويستخرج منها حقائق يبذل لها من نفيس وقته ، وقوة عقله ، ودم قلبه ، ما يشهد له به كلّ من وقف على مصنفاته ، ورسائله التي كانت تتهاداها المجلات الكبرى في مصر والشام ولبنان ، كالمنار والمقتبس والعرفان ، فكان ينشرها على صفحاتها إيماناً واحتسابا ، ولم يكن يبغي منها ، ولا مما يطبعه مستقلاً ، إلا وجه الله والدار الآخرة .

وكنت قلت في مقدمتي لكتابه « قواعد التحديث » الذي خرّجت أحاديثه ، وطبع بعد وفاته ، ما نصه : -

« إن مما يقضي بالعجب من أمر أستاذنا المؤلف رحمه الله تعالى ، هو كونه خلف زهاء مائة مصنف أو أكثر ، ولم يبلغ الخمسين من عمره ، وندر جداً أن ترى كتاباً في خزانته الواسعة ، مخطوطاً أو مطبوعا ، خالياً من التعليقات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الكثيرة ، والتصحيح على الأصول الخطية الصحيحة ، ولو طال عمره لرأينا من آثاره النافعة أكثر مما رأينا ، ومن نفاسة تآليفه فوق ما شاهدنا ، فإن الأستاذ كان في تجدد مستمر ، استمده من علوم العصر وحقائقه ، وانكشف له به عن كثير من أسرار الشريعة وغوامضها » .

ثم رجوت أن توفق الأمة إلى طبع ما اشتدت إليه الحاجة من مؤلفاته ، لا سيما تفسيره الكبير الجليل ، المسمى بـ « محاسن التأويل » .

وقد تفضل المولى سبحانه وله الحمد والشكر ، ويسّر طبعه في دار إحياء الكتب العربية بمصر ، لصاحبها السيّد عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ووقف على طبعه وتصحيحه ، ورقّمه ، وخرّج آياته وأحاديثه ، وعلّق عليه ، خادم الكتاب والسنة ، العلامة الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي الشهير .

هذا التفسير قد بلغ اثني عشر جزءاً كبيراً بتجزئة المؤلف ، ولعله يبلغ بالطبع أكثر من عشرين إذا تساوت أجزاؤه ، وقد بدأه رحمه الله بمقدمة حافلة في أصول التفسير وقواعده ، وجعلها جزءاً مستقلاً قلما تقع العين على مثله ، وقد نجز طبع هذه المقدمة ، وهي الجزء الأول منه (١٣٧٦ هـ — ١٩٥٧ م) وخُصّ كاتب هذه السطور بمراجعة المطبوع جزءاً فجزءا . وتصويب الأغلاط المطبعية ، وهو ما يراه القرّاء آخر كل جزء منه ، وهذا بعض حق شيخنا المؤلف علينا ، أجزل الله ثوابه .

من مباحث المقدمة : تمهيد خطير في قواعد التفسير ـ قاعدة في أمهات مآخذه ـ قاعدة في معرفة صحيح التفسير ، وأصح التفاسير عند الاختلاف ـ قواعد في معرفة أسباب النزول ، وفي الناسخ والمنسوخ ، وفي القراءة الشاذة ـ وقاعدة في قصص الأنبياء ـ وفصول في معنى ما نقل أن للقرآن ظاهراً وباطنا ، وكون الباطن هو المراد بالخطاب ، وفي وقوع تفاسير مشكلة في القرآن .

ومن عناوين المقدمة أيضا : العرب الذين نزل القرآن بلسانهم ـ العلوم التي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كان العرب يعتنون بها ـ لا بد في فهم الشريعة من اتباع معهودهم ـ قصص التاريخ لا يراد بها سرد تاريخ الأمم أو الأشخاص ـ قاعدة الترغيب والترهيب في التنزيل الكريم ـ وفصول في أن الأحكام في القرآن أكثرها كلية ـ القرآن فيه بيان كل شيء من أمور الدين ـ أقسام العلوم المضافة إلى القرآن ـ المدني من السور منزّل في الفهم على المكي ـ مدخل السنة في تبيين الكتاب ـ في أن الأدلة الشرعية لا تنافي قضايا العقول ـ السنة تفصّل ما أجمله الكتاب .

ومن أبدع فصول المقدمة وأمتعها : هل في القرآن مجاز أم لا ؟ وهل في اللغة أسماء شرعية نقلها الشارع عن مسمّاها في اللغة ؟ ـ ذكر مجمل مقاصد التنزيل الكريم وضروب التفسير ـ مطلب في سر التكرير ـ ذكر بديع أسلوب القرآن الكريم ـ معنى السبع في حديث «أنزل القرآن على سبعة أحرف» ، معنى الأحرف في الحديث ـ بحث القراءات الشاذة ـ ثمرة اختلاف القراءات وتنوّعها ـ إجمال المباحث المتقدمة في تواتر القراءات وعدمها ، وختمه بفصلٍ في ذكر ملخص وجوه التفسير ومراتبه (للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده) ، وآخر في بيان دقائق المسائل العلمية الفلكية الواردة في القرآن الكريم ، ثم بيان أنّ الصواب في آيات الصفات هو مذهب السلف ، وذكر انطواء القرآن على البراهين والأدلة ـ والخاتمة في شرف علم التفسير .

ومن المباحث المهمة التي تعنى مجلتنا بمثلها : تقسيم الألفاظ الدالة على معانيها إلى حقيقة ومجاز ، فقد نقل المؤلف بحثاً ضافياً عن إمام المعقول والمنقول ابن تيمية ، نفى فيه هذا التقسيم ، وقال : هو اصطلاح حادث بعد انقضاء القرون الثلاثة ، لم يتكلم به أحد من الصحابة ، ولا التابعين لهم بإحسان ، ولا أحد من الأئمة المشهورين في العلم كمالك ، والثوري ، والأوزاعي ، وأبي حنيفة ، والشافعي ، بل ولا تكلم به أئمة اللغة والنحو كالخليل ، وسيبويه ، وأبي عمرو بن العلاء .... ونحوهم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

نقل شيخنا المفسّر القاسمي رأي الإمام ابن تيمية بطوله في الحقيقة والمجاز ، وما زال الناس يتساءلون ، فمنهم من يقول : إن ابن تيمية ينفي المجاز في أسماء الله تعالى وصفاته ، ويثبته فيما عدا ذلك ، ومنهم من يقول : إنه لا يرى وقوع المجاز في القرآن أصلا ، ومنهم من يرى أنه ينكر المجاز في لغة العرب ، ويجيب ابن تيمية عن ذلك كله فيقول ما خلاصته :

(١) إن المجاز الذي هو قسيم الحقيقة لم تعرفه العرب قبل الإسلام ، ولم ينطق به أحد من الصحابة الكرام ، ولا من التابعين لهم بإحسان .

(٢) هو اصطلاح حادث بعد القرون الثلاثة ، وإنما اشتهر في المائة الرابعة ، وظهرت أوائله في المائة الثالثة ، ولم يعلم في المائة الثانية ، اللهم إلا أن يكون في أواخرها .

(٣) لم يتكلم به أئمة اللغة والنحو كالخليل بن أحمد الفراهيدي (م ١٧٠ هـ) وتلميذه سيبويه (م ١٨٠ هـ) وأبي عمرو بن العلاء (م ١٥٤ هـ) ونحوهم .

(٤) إن أبا عبيدة معمر بن المثنّى (م ٢٠٩ هـ) هو أول من تكلم به في كتابه (المجاز) .

(٥) إن معنى (المجاز) عنده وعند أئمة اللغة والنحو الذين سبقوه ، هو ما جاز لغةً ، لا أنه قسيم الحقيقة .

(٦) بيّن أن القائلين بوجود (المجاز) ـ وهو استعمال الكلمة في غير ما وضعت له ـ يأتي أحدهم إلى ألفاظ لم يعلم أنها استعملت إلا مقيّدة ، فينطق بها مجرّدة ، وضرب لذلك الأمثال ، كلفظ العين والرأس والأسد والبحر وغيرها ، وجاء بأمثلة من القرآن الكريم ، وأوضح أن كلاً منها حقيقة في معناه .

نكتفي بهذا القدر في الكتابة عن مقدمة هذا التفسير الجليل : « محاسن التأويل » وسنعود إلى الكتابة عن فرائده وفوائده في أجزائه التالية إن شاء الله تعالى .

محمد بهجة البيطار

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net